موسى كريدي

الحيّة

اعتاد ان يدير ظهره لرائحة المكان وضيقه كلما فكر بنزهة وقت العصر ، موليا عينيه شطر مفازة واسعة سعة السماء ، تتصل بفراغ ازرق يمتد امتداد اقواس الرمل التي كانت تذوب عند حافة الافق البعيد .. وحين يعود في طريقه الى المكان الذي خرج منه قبل ساعات يرى على يمينه مقبرة قديمة ذات رؤوس وابراج ما زالت تنمو وتنخفض كالسهب ، ويرى في الطرف الاخر تلا افقيا تكون بفعل الريح وانحدر ببطء نحو غور طيني انحسرت عنه المياه التي كانت تغمره منذ سنوات فاضحى مجرد قاع بلون الحجر الكامد يملأه الدغل والحصى وبضع شجيرات نبتت هنا ، وهناك .. هكذا كانت المدينة منذ الف عام ارضا تغطيها مياه المطر ، وبرك من العوسج والثلج ايام البرد ، وتضم تحت رملها الابيض كأصداف البحر ضريحا ملفتا للنظر ، واضرحة أخرى غير بعيدة تضم ارواح الانبياء والاولياء والصالحين من البشر .

« لم تعد مدفنا للموتى ولا متكأ للرحيل .. » هجس هذا في خياله بعدما رأى الناس قد نصبوا فوق تراب المدينة الاثري بيوتا واكواخا للسكن ، ومساجد للصلاة وطلب المغفرة .. وحين طوت خطاه ارض الوادي المقدس ، عثرت بامكنة ومبان لمدارس جديدة .. مدارس للبنين ، وأخرى للبنات .. كانت الاسواق تضج بالزحمة والضوضاء .. وكان الزائرون يفدون من كل طرف حاملين معهم خرافا منذورة ، وزاد المسافر . ولمح اشرطة خضرا يشدون بها ايدي صغارهم عند عتبة الضريح .. لقد اتخذوا منها مزارا يقصدونه من مسافات بعيدة ، ولم يبالوا بقطع المسافات مهما بعدت .. انهم يؤمونها حتى لو كلفهم ذلك جرحا او موتا .. وكانوا لهذا يرونها قصية .. وعلى مر الايام صارت المدينة محجة وكعبة .

امتلأ حسه منذ صباه بطوفان من البكاء ، وشعر ان هذا الطوفان لم يكن بغرق ساحات مدينة (ن) واسواقها المجللة بالسواد فقط ، بل كان يراه يفيض بهزهزة ورقصات يصحبها عادة دق متواصل ، ورنين صنجي يجري في الامكنة وفراغاتها .. وفي الردهات ، هنالك ، دم يسيل ، وضباب يرتفع ، وحرائق تشتعل ، وعربة تلو عربة تحمل شمعات كهربية صغيرة .. الخيل وهي تشق الزحام بهودج مرفوع ، وأردية خضر وحمر وسود تلمع تحت لهب الشمع الذي يرقصه صوت نادبة تصرخ او نادم يستغيث عبر اصوات حداء ، وصور تأتي اكثر صخبا لم تكن لترسخ في الحلم فقط ، ولم يكن يستعيدها كشيء مر .. انما كان لطقسها لون الدم وثقل الصيف فوق مسامات جلده الرقيق وشفتيه .. انه يلمحها تتراءى له كلما ابتعد عنها بجسده ، فبقدر ما كان يحاول ان يفصل نفسه عن خطها المتصل بذهنه يشتد تعلقها به حتى لتبدو في عينيه شريطا يزحف ببطء مثل رمال تتحرك .. وما ان بلغ السابعة والعشرين حتى بدت كل حفلات الحداد تلك ، صورا مألوفة مثل تعاقب الليل والنهار في قلب مدينته .

لكن ما رآه هذا اليوم كان اكبر .. كان الناس في المدن القريبة يشتلون في كل منعطف شجرة ، اما في مدينته فان كل قبر يعلو قامته يراه ينمو كالاثر فلا تكاد تخلو من هذا الاثر البارز للعين حديقة او باحة أو جامع ، حتى البيوت فانها تضم في احشائها اكثر من لحد لميت مات ، او ميت يجيء .. لقد تكاثر الموتى في المدينة .. قال ذلك لنفسه وتساءل مثل الطفل : الا يمكن لهذا التكاثر ان يشكل خطرا ؟ سيقال ان مدينة (ن) كانت مدفنا .. وستبقى هكذا .. ان هذا يعني ان الموتى يحق لهم ان ينتشروا ويتكاثروا ، وان يغطوا ارض المدينة بمسحوقهم الاصفر الدقيق ، ويستبيحوا ما تبقى من المساحة المتاحة لسكنى الاحياء من الناس ، وما على الاحياء الا ان يذعنوا للامر ، ويفسحوا المجال واسعا لهم وطمعا بالثواب ..

كان هذا ما يدهم ذهن عامر سعيد ويرعبه في الوقت ذاته ، ويسبب له ارقا دائما .. وكان هذا ما قاده لان يبحث في بطون الكتب العلمية والطبية يستقرئها ويجمع منها المعلومات الوافية التي تخص انحلال الجسد ، وتفسخ الجثث الرميمة . كان يرى ان مزاحمة الموتى للاحياء ستكون كارثة العصر وستكون سببا في اصابة وقتل عدد كبير من الطرف الثاني . كان عامر يدون كل هذه المعلومات في دفتر ملحوظاته الصغير .. وكان يرى المدينة تفتح فمها لالتقاط مزيد من التوابيت .

حين التقى بزملائه في الصباح حاول ان يذيع بعضا من اسراره ، غير انه لم يفعل اي شيء ، فما زال بعضهم يتوجس كلما سمع منه شيئا يمس عالم الاموات ، فانصرف الى تحضير ما يحتاجه وفكر في تلاميذه الصغار .. وقبل ان يقرع الجرس في الساحة ويدخل الطلاب الى صفوفهم سلمه مدير مدرسته طلبا سرعان ما التقطه بيدين مرتعشتين وارتسم القلق على وجهه بعدما فرغ من قراءته .. وقبل ان يلفه الفصل وبظلل اهدابه غبار الطباشير ، فهم انه مكلف باعداد

محاضرة بلقيها بنفسه في محفل كبير .. وخالط فهمه شعور غامض ولم يستقر على رأي ، فقد كان ذهنه مشوشا . وبعد ان دخل الصف حيا كعادته تلاميذه بابتسامة صغيرة ثم شرع في البرهة التالية بنقل بصره بين الكتاب المفتوح والسبورة ولم يستطع ان يستمر في هذا ، فقد انحصر تفكيره في ضرورة ان يجد عذرا مقبولا لعدم تمكنه من تلبية ما طلب منه لا سيما وان لديه شيئا لو جاهر به لجلب له سوء العاقبة .

كانت الشمس تتسلل عبر زجاج النوافذ ، وكان يقف بطوله في حاجز الظل ، غير انه القى كتلة من الضوء الساطع تلتصق بجدار انتصب خلال وجهه تماما ، وما لبث قليلا حتى احاطت تجويف عينيه هالة من سائل اسود غمرت الزجاج والنافذة التي استند اليها بمرفقه وغمرت ابتسامات الصغار وتحولت حجرة الدرس في رأسه الى قاعة واسعة .. رأى القاعة تزدحم بعيون تنفتح باتجاهه فقط . تدنو منه على وسعها ، تزحف كالسرطان فتجس جفاف شفتيه وحبات العرق التي التمت على جانبي صدغيه خلال شعره المتطامن بعدما عبرت غور التجاعيد المحفور في وجهه ورآها تثقب جمجمته بنفير الغضب وكان الغضب يوقد بداخل ردهة من الفراغ وفوق الرؤوس المتجمعة مثل شموع سيارة حملت وسط عربات من الدم .. واذ تضطرب الحنجرة ، وتموج اصوات الاستنكار بدرجة اعلى من الحمى ، بنفرط ورق المحاضرة المكتوب ، ويتكسر تحت السنابك ، ويضيع خلال المحمحة والصهيل ، وليس بمقدور اكبر قوة في العالم ان توقف هذا المد . فالاصابع تستطيل وتكتظ ولن تفري سوى لحم الوجه والاسنان تصل وتتحفز ، ويختض الجسد خضة او خضتين وتموت الضجة ، وبهذا الدم بعدما ينفصل الرأس عن الجسد ، وحينذاك فقط ، تعود القاعة كما كانت ، هادئة كالهواء المحبوس جدرانها .

على صوت قرع الجرس في فناء المدرسة الواسع انفلقت الغشاوة في عينيه كالغيمة ، وسمع عامر سعيد أصوات تلاميذه المبتلة بالفرح تملأ الساحة وترحل نحو الضوء البعيد . وقبل ان يصل عتبة الغرفة المعباة برائحة التبغ والانفاس الرطبة مد راحتيه فلمس فروة رأسه وحكها باصابعه وتأكد ان رأسه مازال في مكانه .

انهى حصته الاخيرة . وخرج . خطا ببطء ، ورفع رأسه فرأى من بعيد قبة مهيبة تلمع عليها انعكاسات الشمس وظهرت قبالتها ساعة المدينة بلونها الداكن وشكلها الكنسي ، كما ظهرت منارتان شاهقتان نحو السماء ، مكسوتان بالذهب ، وتذكر عش اللقالق فوق احدى المنارتين ، وكانت الاخرى قريبة من سطح داره يكاد يراها كل يوم ويسمع عبرها في هدأة المساء الآذان والترتيل ومناجاة ما بعد منتصف الليل ، وتذكر الشيخ المؤذن : عمة بيضاء ، ووجها صغيرا مكسوا بالشعر الابيض كالزغب وتذكر صوته الاجش وسمع دقات الساعة تعلن وقت العصر وكان لرنينها في نفسه ذكرى بعيدة .. كان يطأ بقدميه سطحا من الرمل . وكانت الريح تمر هادئة وما ان اجتاز منفسح الرمل الممتد نحو طرف الصحراء وشاهد جمالا في قافلة تسير من بعيد حتى انعطف نحو شارة المحطة الاخيرة لسيارات الركاب العائدة نحو المدينة . انتظر تحت الشارة الموهة الارقام خمس دقائق فلم يلمح أي اثر لسيارة قادمة . وما ان دار الارقام خمس دقائق فلم يلمح اي اثر لسيارة قادمة . وما ان ادار للمحطة ظهره حتى درجت خطاه في حي سكني جديد ، كان الحي ذا شريطين لبيوت حديثة الطرز تحوطها الاشجار واعمدة النور ويتوسطها شارعان مبلطان بينهما طريق موطوء بالعشب والحصى . فكر في مبنى البهو وماذا يمكن ان يحدث من لغط وضجيج ساعة يلقي كلاما لم يألفه الناس هنا .. ولا يمكن ان يألفوه ما دام الموتى يقاسمونهم الملح والماء ، وما دام الزمن يبطيء سيره في دائرة الحجر الذي يمتد امتداد الصحراء . واعتصرته الرهبة حين تراءت له زحمة الحشد ، وهتاف الحناجر . ورأى بعيون الاخرين نظرات بحجم سنابك الخيل . رآها تغص غضبا تسوط اذنيه وتقطف لحم الوجه .. واذ ترتفع الحمى وتنطفيء انوار القاعة ، يتداعى الجسد مثل تداعي اوراق المحاضرة وينزل ، بعدها ، ضيفا على الاموات ثقيل الظل . كان هذا ما ازحم عقله مرة أخرى ولم يتريث ليرى انه قد اخطأ الظن . فما ان عبر شارعا اخر في الحارة ذاتها حتى لمعت في ذهنه صورة اخرى : القاعة مفتوحة مثل عيون الناس وهي ترسل نحو صدر المسرح المفتوح نظرات رقيقة .. الناس مجتمعون ، وآذانهم تصغي باهتمام .. الجمهور يصغي ويفكر ويناقش مؤملا ان يسمع ما لم يسمعه ، مخفيا ضجته في سره ، متلمسا في ظلام نفسه رؤوسا بلون الحجر . اذن فهؤلاء هم الموتى ، يزحفون ببطء نحوه يغطونه بعريهم وقاماتهم ويصبغونه بالرائحة فلابد أن يرفض اذ كيف ينام الطفل في سريره مطمئنا ؟ الجمهور يقترب من وجهة ، ويقبله في الوجنتين .

اقتنع عامر سعيد بفكرته فهدأت روحه ، واطمان الى ان كل شيء سيجري مثل ما يريد . وما ان حل اليوم الثاني حتي وجد نفسه في غرفته المكتظة بالصمت والرطوبة والكتب . كان وحده . وكان الهدوء يلفها . لقد تم كل شيء : أعد مسودته ووضعها امام عينيه .. قلب الصفحات كلها ثم اعاد ترتيبها اوعاد النظر في ترقيمها وتأكد من ثبت المراجع وصحح ما كان من اشارات ، ثم قرأ ما سود بصوت عال وركز في مقطع دون آخر ، وتوقف عند فاصل الموت فألفاه ذا وقع مثير . وفرح لانجازه هذا فرحا انساه عادات المدينة فأخذ يدندن ، بينما راحت خطواته تزرع الغرفة المضاءة بنور بدأ شديد السطوع . جلس وراء منضدته الخشب مطلا برأسه عبر النافذة نحو الزقاق المجاور فلم ير احدا من المارة . وفكر انه لم يضع عنوانا . وظل حائرا برهة من الزمن ووجد الاختيار صعبا ، غير انه اهتدى في اللحظة الاخيرة فخط في صدر الصفحة الاولى « اقتلوا بكتيريا الموت قبل ان تقتلكم » وتوقف وهو يردد نظره عند كلمة «اقتلوا» ووجد ان بينه وبينها عداء قديما نشأ معه منذ طفولته . كانت كلمة « اقتلوا » مرعبة حقا ، لكنه لم يجد مفرا من اثباتها . لقد تم كل شيء .. حسنا .. قال لنفسه ذلك ونهض وارتدى ملابسه وحدق في المرآة فرأى السمرة ذاتها وقد نز عنها ذلك الشحوب المائل للصفرة وظهرت غضون في وجهه ، وهالتان زرقاوان فيما حول عينيه الصغيرتين اللتين اختفتا خلف زجاج نظارتيه المعتم .. ورغم ما يبدو من وهن ظاهر خلال هيكله النحيف ، فانه شعر تلك اللحظة بحركة تسري في عروقه وتمنحه قوة لم يشعر بها من قبل . هبط السلم نحو الخارج ، هبط خفيفا ، ودار في الازقة وخشي الا يجد رئيس المنتدى في داره ولم تمض الا دقائق حتى قابله في الطريق وابلغه بموافقته على القاء المحاضرة في يومها المحدد . وعاد مغتبطا ، وظل ينتظر اليوم الموعود .

كان الوقت ضحى ، وكان اليوم يوم جمعة . اعتاد عامر سعيد ان يتأخر في نومه ايام العطلة . مد رأسه من شباك غرفته فرأى الشمس تتسلل من خصائص الباب الى الغرفتين الصغيرتين الواقعتين اسفل غرفة نومه التي بدت حجرة من الخشب العائم معلقة على طرف شرفة مائلة تسندها من تحت بضعة اعواد تقوست بفعل الضغط، وتشقق بعضها وتدلى البعض الاخر ورأى السماء زرقاء ، وخرج الضحو وهو ينتشر عبر الحدائق الصغيرة والقباب الزرق وسطوح المنازل في الجهة الاخرى . وسمع دقات الساعة وكان تدفاتها رنين أحسه يختلف عما كان عليه في الايام الماضية وتمنى لو يقترب موعد الافتتاح .. عما قريب تفتتح القاعة ويتم اللقاء بالناس جميعا . فكر بهم وتمنى لو كان الناس كظنه بهم . طلب من اهله ان يسخنوا له الماء ، ويعدوا طعامه وراقب اهله همته ، وتوتر يديه فلم يسألوه شيئا ولم يأملوا منه أن يقول شيئا . فقد اعتاد عامر الا يخبر ايا من افراد عائلته بما يفعل أو يعتزم من مشاريع ، حتى سفراته القليلة كان لا يعلن عنها لهم الا في اللحظة الاخيرة .. بعد ان استحم

واكل حتى شبع هم الى ملابسه واعتنى بارتدائها والفى نفسه انيقا يلوح عليه مظهر من يعد نفسه لان يكون محاضرا او خطيبا . نظف زجاج نظارتيه بورق السجائر والتقط اوراق محاضرته ووضعها في محفظته السوداء بعد ان دس فيها كتابا او كتابين وبضع اوراق بيض وقلما . اغلق محفظته وتابطها ومضى .

كان الوقت عصرا والشمس دافئة ، داهمه لاول مرة وهو يخترق الطريق احساس من يطأ دروبا ملتوية تستدير به وتقوده الى منعطفات قليلة النور لبقايا مبان اثرية . احتمى بضوء الشمس ، وشم من كومة حجار عثر بها رائحة مسحوق العظام . كان مسرعا ، وفجأة ابطأ السير . انتبه الى الصمت الذي يكاد يلفه بريحه الباردة، وعجب لفراغ المحلة من حركة المارة وزعيق الاطفال ، وعراك الامهات في مثل هذا الوقت ، ولم يفهم شيئا حيث كان ذهنه تلك اللحظة منحصرا في بهو القاعة ، مشدودا الى الناس وهم يحيطون كل جزء منه بنظراتهم . ورأى من بعيد عجوزا ترمي على الارض ماء قذرا واراد ان يسألها عن سبب غياب الناس في هذا الوقت بالذات فلم يستطع اذ سرعان ما اختفت المرأة المسنة عبر هوة صغيرة انحرفت نحو الارض التي خرجت منها ولا يكاد باب بيتها يرى لانحداره الشديد وانكسار عتبته عن مستوى السطح المبلط بنثير من الحصى الاسود .

اوشك ان يصل . ها هو مدخل القاعة . الاضواء مطفأة من الخارج ، والشبابيك موصدة ، الباب نصف مغلق . وتكور لصق الباب ، على كرسي متهالك ، رجل نحيف . كان يطوف بعينيه الصغيرتين ارجاء الفراغ المحيط بالقاعة . كان البواب يدير ظهره للشارع والساعة قد تجاوزت الخامسة قليلا وهو موعد الافتتاح .

حين اقترب ناحية الباب اكثر ، فتحه ، وتطلع نحو الداخل . وهاله الصمت ، وانعكاس الضوء المنبعث من مصباح كان معلقا . بدا الضوء مطلا على ستارة المسرح المسدلة منعكسا فوق الكراسي التي صفت في الفراغ واتجه الى البواب فرأى عينيه شبه مطبقتين على اهداب بيض ويديه مشغولتين بطقطقة كانت تصدر من حبات مسبحة طويلة .

ـ قل لي من فضلك متى يبدأ الافتتاح ؟

لم يقل البواب شيئا . ظل وجهه مغلفا على سر وظلت اصابعه منشغلة بحبات المسبحة ، واحس عامر بالاهانة وخجل وقال لنفسه : لا بد ان الناس قد ذهبوا لتشييع جنازة .. وتساءل بغيظ لم تكون هذه الجنازة ؟ لا بد ان علما من اعلام المدينة قد مات اليوم .. لم يستقر . بدأ اول الامر متوترا ، لكنه ما لبث ان هدأ وغير من لهجته حتى بدت هادئة :

ـ ايها العم قل لي ما الذي حدث بالضبط ؟

انفرجت عن شفتي البواب النحيف ابتسامة صغيرة واختفت صرامته من وجهه وقال :

ـ ألم تسمع ؟ ألم تر ؟ اين كنت تنام ؟

ـ لا .. لم اسمع .. ما الامر ؟

ـ الحية ..!

ـ اية حية ؟

ـ لقد ظهرت الحية .. الم تسمع بظهورها ؟

انتاب عامر سعيد في اللحظة ، فزع ممزوج بشعور غامض ... ضغط بيديه على جلد محفظته السوداء ، وتابطها ثانية .. ومضى .

* * *

تلال من البشر تسد المنافذ برؤوسها واكتافها وقد تداخل بينها نور رمادي انتشر في سماء المكان عبر ابتهالات تطوحت في الهواء ، ورن لها صدى جماعي كان يصعق نحو السماء كالنشيد وينكسر قبل ان يدخل جوف الغرف التي لا يدخلها الضوء . وكان بين البرهة والاخرى يهمد فتحل في الاذان غمغمات كئيبة . وكان عامر يرهز بمرفقيه الزحمة ليترك مجالا لرأسه ، فقد ضاعت يداه خلال الدفع والجذب كما ضاعت محفظته . وكادت رقبته تلتوي على نفسها ، غير انه الفى رأسه يستقيم مشرئبا خلال الاعناق والضوء المختلط واستطاع ان يتلمس براحتيه مقدم جبهته بعد ان رفعهما ولكن بلا محفظة ، ومسح بضع قطرات من عرقه ودهش لاحتفاظ عينيه بنظارته . واذ رفع وجهه الخالي من الدم نحو السماء لمح الحية تتلوى لاول وهلة فاعترته هزة غامضة وصوب نظراته ثانية بانجاه الحية فرآها حمراء بلون الدم .. كانت الشمس تختفي ببطء .. كانت تزحف تاركة لطخة من الضوء الاحمر في الاعالي . كان نصف جسد القبة المخروطي في الضوء الذي بدا بعد لحظات بنفسجيا . ولحظ جسد الحية لينا ، يتموج ويتحرك حركة تتوافق مع الاصوات ، وحركة الدفع خلال الشد والارتخاء . حين خفض بصره داهمته رغبة في البكاء . اراد ان يكلم شخصا او اكثر فوجد انه افتقد حاسة النطق لم رأى العيون كلها تشخص وتكتحل بالضراعة . رفع رأسه ثالثة باتجاه مركز الحية. وركز كل نظراته محاولا ان يعثر على جمجمة الحية فلم يلمح اي رأس لها . وحدس ان ما يراه الناس المحتشدون ، هنا ، انما هو شبح لرأس ..

احتفظ عامر بخياله وخشي ان يتسرب نحو الجموع ، وزايله دوار خفيف . طافت عيناه خارج اطار الزحمة فتذكر القاعة المهجورة والبواب الراكز عند اسفلها وسمع صوت حبات مسبحته السوداء وتذكر اوراق محاضرته وشم رائحة تفسخ الجثة ورائحة مسحوق اصفر . وانفتحت عيناه على وسعهما خلال الصخب واستطاع ان يحمي جسده ويصمد ازاء لطمات المد التي ارجحته وكادت تضرب به الارض . لم كل شجاعته وتحرك وهو يدفع بمنكبيه مئات الاذرع والرؤوس وانسل من الزحمة نحو الشارع .. اراد ان يستعيد انفاسه فدخل اقرب مقهى ولم يجد سوى بضعة اشخاص .. جلس وحيدا يداري اضطرابه وكان على مقربة منه شخصان احدهما رجل مسن والاخر اصغر سنا . ولحظ هدوءا غير متوقع ولم يلحظ اي اهتمام داخل المقهى لما يجري في الخارج سوى ما كان من همس يجترح الصمت بين لحظة واخرى ، وخمن ان هذين الرجلين القريبين من طاولته كانا يتحدثان بصوت خفيض عن الحية . كان عامر يحتسي الشاي متمهلا، هادئا .. تذكر محفظة اضاعها ، وحية بلا رأس .. احتفظ بخياله لنفسه ثانية وخشي ان يتسرب . كان يسترق السمع وكان صوت الرجلين يقترب من اذنيه واضحا .

قال الرجل المسن : لقد ظهر مثل هذا قبل عشرين عاما ..

فسأله الثاني : أكانت هذه الحية نفسها ؟

ضحك الرجل المسن وهز رأسه وقال :

ـ اية حية ؟

فدهش الثاني وعقد ما بين حاجبيه وقال :

ـ اتعني انها ليست حية ، فماذا تكون اذن ؟

فقال الرجل بصوت مطمئن :

« هذا الذي تراه ، ويراه الناس .. ما هو بحية ، انما هو ذيل مقطوع وليس شيئا آخر .. ولكي تفهم الحقيقة ، اقول لك ان هذا الذيل ليس لحصان ولا لقط .. انه ذيل لطيارة من ورق ليس اكثر . لقد رأيت هذا بنفسي .. رأيته حين صعدنا ، بعد الضجة ، وازحنا ما علق وما يمكن ان تتركه الريح عادة .. والآن افهمت ماذا تكون ؟

قال صاحب الرجل المسن « عجيب »

فقال الرجل : لا تعجب .

نهض عامر سعيد متأملا عيني الرجل المسن وتورد وجنتيه عائدا الى بيته .. وفي الطريق تذكر يوما لن ينساه ومحفظة اضاعها في الزحام .

بغداد